حسنين علي نوري
قصة
المصير القادم

حسنين علي نوري

قصة قصيرة

المصير القادم

جميع الحقوق محفوظة لدى الكاتب @

المصير القادم

أخذت إجازة من رئيس العمل، صباح يوم الأحد، الخامس من يوليو/ تموز، بينما كنت امشي في شوارع مدينة بويان الملعونة، سمعت أصوات صراخ تصدر من بيت دون جدار كأنه مهجور منذ مدة طويلة، ذهبت مسرع نحوه لأجد شابان يقذف أحدهما الآخر بكلمات بذيئة ترفض لأذان أن تسمع لهما ، ويضرب بعضمها بعض بأدوات جارحة، ما استطعت أن أفرقهما، لأنهما لم يصغان إلى كلامي من الأساس، حتى رشق أحدهما رأسي بحجارة دون قصد، كدت أن أفقد وعي من شدة الضربة، ثم لمحت شخصا جاء كالبرق، والنور يضيء من وجه كالقمر، وأذا بشيخ جليل يرتدي وشاحا أخضر، اسطاع أن يجلسهما إلى جانبيه ثم أخذ يهدأ من روعهما ، مستخدم أبتسامته التي تبعث رائحة الطمأنينة في القلوب، كنت أقابلهما في الجلوس مستمتعا بحديثه الشائق والمليء بالحكم والعبر في حديثه لشخص يدعى زين العابدين - أبن سيدنا الحسين -، وكان إماما للشيعة حيث يروي الشيخ بعض من قصص ذلك الرجل قائلا :

دخل ألامام في المسجد الشريف، وعليه السكينة والهدوء، صلى ودعا الله تعالى، وعند خروجه ألتقى به رجل كان يحمل ضغينة في قلبه أتجاه إلامام، فلما رأه أمام الناس قال الرجل لامام: أنت الذي تدعى بزين العابدين

قال الإمام: نعم

فقال الرجل أنت شين العابدين

وأخذ يشتم الإمام بكلمات يخجل اللسان بنطقها ويمتنع القلم بكتابتها، فغضب بعض الناس الذين كانوا حاضرين، وحاول البعض منهم أن يضع حدا لتطاول ذلك الرجل، لكن الإمام زين العابدين، قال لهم اتركوا ليكمل ما عنده ... وبعد أن انتهى الرجل كلامه، اقبل عليه إلامام زين العابدين بلطف وابتسامة، وقال له: " يا أبن أخي أما وكل الذي ذكرته في، وما خفي عنك أعظم، ألك حاجة أقضيها تلقاء

النصيحة التي بذلتها لي"، بكى الرجل وقال اشهد أنك أبن رسول الله، سامحني يا سيدي لقد أغراني بعض المنافقين ، حيث قالوا لي أذا أغضبت علي بن الحسين، وجعلته يغضب عليك ، أعطيناك مالا ، فتبسم الإمام زين العابدين مرة أخرى، وقال أهذه، لو أنك أخبرتنا لأعطيناك من دون أن نحوجك، وأمر بعض مرافقي أن يعطوا الرجل ألف درهم .

وذات يوم وبينما كان الإمام جالسا بين أصحابه، جاءه رجل من أبناء عمومته وسمعه كلاما جارحا ثم انصرف فلم يكلمه الإمام واكتفى بالصمت، فقال الإمام لأصاحبه :(قد سمعتم ما قال هذا الرجل وأنا أحب أن تبلغوا معي حتى تسمعوا ردي عليه)، فقاموا مع الإمام يظنون أنه سيرد على ذلك لرجل بالكلام نفسه ،بينما كان الإمام يمشي ويردد: " والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين "، وعندما وصلوا إلى بيت الرجل، طرق الإمام الباب فخرج الرجل والشر يتطاير من عينه، فقال له الإمام بأدب : يا أخي أنك قلت في ما قلت فان كان حقا فأستغفر الله منه وإن كان باطلان فغفر الله لك، فندم الرجل على ما فعله وأقبل على الإمام وهو يقول: بل قلت فيك ما ليس فيك وأنا احق به ... واعتذر إليه .

أكمل الشيخ حديثه بعد كل الذي ذكره قائلا : ذلك الإنسان ضرب لنا مثالا في الأخلاق الحسنة، فينبغي لنا أن نسعى في الإقتداء به والتآسي بخلاقه الكريمة، لأننا نرى كثير من أناس لديهم معرفة كيف يعاقب الله المسيئين ومع ذلك يصرون على أعمال الكذب والنفاق ...

فكمد لون وجهما من شدة الخجل، وما استطاع أحدهما أن ينطق حرفا قط ،

ثم سئلهما الشيخ قائلا: أي سبب الذي جعلكما تتصارعا هكذا ...

أجاب أحدهم ورأسه منحني نحوالأرض: لقد استباحنا الفقر، أصبحنا كالطير منتوف الجناح، لا نقوى على شيء، الفقر أذلنا، صدقني يا شيخ؛ تقطع نياط قلبي كلما أرى شقيقتي الصغيرة تبكى من شدة الجوع، أنا عاجز عن أفعل أي شيء

سوى التفكير في هذه الحياة القاسية وظلمها علينا نحن البائسين، لم يكن أمامي إلا الذهاب لصديقي الذي كان أشد بؤس مني ، كانت حالته يرثى لها وأمام نظرات أمه الصبور، جاءتنا فكرة وكأن الشيطان جالسا معنا يرسم لنا قصة طريق الغنى ذلك الطريق لذي يلعن كل من سار فيه ، قررنا أن نسرق منزل أحد الرجال الذين نعرفهم كان غني جدا، تسللنا في ظلام الليل ، ثم دخلنا من الباب الخلفي لذك المنزل ، صعدنا إلى الطابق العلوي إذ توجد قاصة الجواهر والمال، وأذ بضوء أحد المصابيح يتوهج في أعيننا، رأتنا الخادمة وقبل أن تصرخ قمت بضربها بواسطة مزهرية، لا أعرف كيف جاءت بيدي، بالنسبة إلى الخادمه فقد سقطت أرضا والدماء سالت من رأسها، ما كان أمامنا إلا الهروب من ذلك الموقف الذي جعل من جسدي يرتعش، بالنسبة إلى صديقي (سامر)، فقد كانت قدماه لا تقوى على الحركة، حتى ضربته كف ، كان أشبة بالمصدوم لا أرادة له بماذا كان يفكر ... لا أدري !

نظر الشيخ إلى سامر وسئله: أكمل يا بني، ما الذي حدث بعد ذلك ...؟

أجابه سامر: أسودت الدنيا في عيني عندما ضرب صديقي (راجح)، تلك الخادمة، وانعقد لساني، وما استطعت السيطرة على مشاعري، ثم رأيت سامر أنتزع القلادة من عنق الخادمة وهرب ولكن أنا لم أخطو خطوة واحدة حتى ضربني كف فلحقته ، خرجنا من ذلك المنزل نركض سريعا بكل طاقتنا حتى توقفنا هنا في هذه الخرابة ، من شدة الخوف خبئنا هذه القلادة، على أمل أن نعود في صباح اليوم التالي ....وبالفعل صباح اليوم، جئنا كالغزال الذي اخترق عيناه سهم الصياد ...

كنت أنصت لحديثهما وهم يتكلمان، شعرت ثمة ألم في سويداء قلبهما على كل الذي حدث لهما من متاعب، ثم وجهت لسامر سؤلا: لماذا اختلفتما وأخذ أحدكما يضرب آلاخر إذن؟

إجابني سامر: يا أخي اختلفنا في رأي راحج ، لقد طلب مني أن نسلم أنفسنا إلى محضر الشرطة، لكني رفضت، كنت أفكر في بيع القلادة التي سرقناها، والانتفاع

من ثمنها، فحضر الشيطان بيننا مرة أخرى وحاول أن يفسد علاقتنا بعد الخطأ الفادح الذي وقعنا به، في حقيقة ألامر فقدت صوابي مجددا، وأخذت اضرب راحج ضربة تلو آلاخرى وما كنت أعي شيئا وأنا اشتمه ، كأنه أصبح عدوا لي ...حتى أتيتما، نحن يا شيخ أناس طيبين، ما كنا نريد أن نفعل ذلك قط، لكن الفقر والجوع لا يرحم ...

رد الشيخ عن كلام راحج بقوله: بالفعل أن الفقر لا يرحم، وهناك يقول لسيدنا علي بن ابي طالب في الفقر: "لو كان الفقر رجلا لقتلته " .

لكن هذا لا يبرر لكما أن تسرقا أو تقتلا نفس قد حرم الله تعالى قتلها، فذلك من كبائر الذنوب... أتعلما بذلك ؟

أقترح الشيخ عليهما بأن يختبئان في مكان يأمنا فيه لمدة قصيرة؛ ثم اخذ منهما القلادة المسروقة بينما تعهد لهما أن يتابع قضيتهما عن بعد لمعرفة مصير الفتاة، ويحل قضيتهما بأقل ضرر ما يمكن... إذ قال لهما أقسم لكم بعدل سيدنا عمر بن الخطاب (رضى الله عنه)، سيكون كل شيء بخير ثم اتفقوا جميعا على أن كل الذي حدث سيبقى بيننا دون أن نشهر به أمام أقرب الناس لنا ، أن الله يحب الساترين كما قال الشيخ، بعد ذلك انصرف كل واحد منا ، أنا توجهت نحو البيت ، أفكر بالذي حدث، ما عقوبة هذان الشابان ما مصيراهلهما، لا أصدق كيف تلطخت تلك الايادي بالدم، من كان السبب ،المجتمع الذي قصر أتجاة الفقراء أم الدولة التي لم تلب حاجاتهم، أين التكافل الاجتماعي ؟، حمدت الله كثيرا على النعمة التي أغدقها علي، واستعذت به من شر الفقر وما يمكن أن يخلفه من قتل وسرقه وكذب عندما يكون الإنسان عديم الضمير، وصلت إلى منزلي ثم أتكأت على الأريكة، كانت زوجتي تجلس بجانبي ، تتكلم معي لكن كان فكري مشوش، ثم خرجت بعض النقود وقالت لي: عصر اليوم سنذهب معا لشراء بعض الجواهر، كنت بحاجة إلى شيء ينسيني ما حدث لكثرة التفكير فيه، في الساعة الخامسة مسائا خرجنا متوجهين نحو سوق الذهب

كان السوق مزدحما، وقفنا أمام صائغ الذهب وأخذ يستعرض ما لديه من جواهر لكن كانت أسعاره غالية جدا تفوق مقدرتنا الشرائية، وكان مقابل هذا المحل مجموعة من الصاغة الذين كانت أسعارهم في البيع مناسبة لنا، ذهبنا لأحدهم بينما كانت زوجتي تعامله رأيت شخصا يتجول ويسأل الناس لم اعرف في ماذا كان يسئلهم، لكن كانت في يده قطعة ذهب، كلما وقف أمام شخص أضهرها له وتحدث معه ، كانت ملامحه ليست بالغريبة علي سبق لي وأن تكلمت معه ، لكن أين ما تذكرت قط ، قررت وأنا اذهب إلى ذاك الرجل، وقبل أن أقترب أتجاه على مسافة ثلاثة أمتار تقريبا نظر لي وهرب مذعوا ، وهنا كانت الصدمة الكبيرة بالنسبة الي التي جعلتني أشعر بالحمق أتجاه نفسي بعد أن عرفت ذلك الشخص هو الشيخ الجليل نفسه ! آه يا له من ماكر، محترف لقد خدعنا بغطاء الدين، وقتها اعتقدت بشكل جازم وليس مجرد ظن أن الدين أفيون الشعوب، أنها بالفعل تجارتهم الرابحة .

ارتفعت أصوات الصراخ هذه المرة في أحدى المحلات، وبينما ذهب الناس مسرعين نحو ذلك المحل، همست لزوجتي وأمسكت بيدها ثم عدنا إلى البيت ...